المحاضرة الثالثة: دور الصحافة في النهضة الأدبية (الشعرية)

تمهيد

أدرك زعماء الإصلاح في الجزائر ما للصحافة من أهمية في تنوير الرأي العام وبث الوعي الاجتماعي والقومي والسياسي، "فأسسوا صحفا "كانت مدرسة كبرى للوطنية، ومصلحا عظيما للمجتمع، ومثقفا كفءً للشعب، ومنبرا للخطباء والأدباء ، ولعبت دورا كبيرا في إحياء اللغة، وإعطائها المرونة والحيوية"[1].

وكانت هذه الصحافة من بواعث النهضة الشاملة التي شهدتها الجزائر في العقود الأولى من القرن العشرين، فضلا عن دورها الكفاحي والبطولي في معركة التحرر الوطني. وإن المتصفح للإحصائيات الكثيرة التي أوردت عدد الصحف الجزائرية التي كانت تصدر ثم تصادر بعد عددين أو ثلاثة ليدرك مدى تضييق الاستعمار للخناق على الصحافة العربية الجزائرية، كما يدرك في مقابل ذلك ثبات الجزائريين واستماتتهم في المقاومة القلمية. ففي سنة 1934 نشرت جريدة الأمة للشيخ إبراهيم أبي اليقظان إحصائية بعيدة الدلالة في تجسيم استماتة الشعب الجزائري في كل ما من شأنه أن ينهض بدينه، "وهذه الإحصائية تؤرخ لثلاثين سنة تمتد من (1904 إلى 1934)، وتعدد ما صدر فيها من جرائد عربية وأسس من مدارس ومعاهد ونوادي، ولن أعمد إلى سرد الأسماء وإنما أكتفي بالأرقام "[2]، 33 جريدة ومجلة. 18 جمعية. 14 ناد. 150 معهد ومدرسة. وأشهر هذه الصحف:

1- (المنتقد) وهي صحيفة أسبوعية أصدرها ابن باديس سنة 1925، ولم تدم إلا 18 أسبوعا، يقول عنها ابن باديس: " في يوم النحر من ذي الحجة، خاتمة شهور عام ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف، برزت جريدة (المنتقد) تحمل فكرة الإصلاح الديني بتنزيه الإسلام عما أحدثه فيه المبدعون وحرفه الجاهلون. وبيانه كما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة، وعمل به السلف الصالحون، معلنة أن المسلمين بذلك وحدة تصفو عقائدهم، وتزكو نفوسهم، وتستقيم أعمالهم، وينبعثون عن قوة

---

[1]- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،1981، ص 432.

2- صالح خرفي: شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى)، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات 1969، ص19.

وبصيرة في الأخذ بأسباب الحياة الراقية، والمدنية الطاهرة. مشاركين أمم الدنيا في خدمة الإنسانية، وترقية الحضارة، وتوسيع العمران"[1].

2- (الشهاب): وهي أشهر المجلات التي أصدرها الإمام ابن باديس وأتباعه في 1925/11/12، " وهي أشهر المجلات في المغرب العربي في النصف الأول من هذا القرن، وأطولهن عمرا، وأعظمهن خطرا، وأبعدهن أثرا، وأغناهن فائدة ونفعا، فقد كانت تتناول الفكر الإسلامي في وعمقه وأصالته، وكانت كثيرا ما تنصب أثناء ذلك على الفكر الإنساني بما فيه من سعة وشمول"[2]. وكانت من أهم الوثائق التي حافظت على الشخصية الوطنية "وقد استطاعت خلال خمس عشرة عاما أن تظهر للوجود، وأن تحدد لها نظرية اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية، وكان للشهاب مكانة عالمية ليس فقط في الجزائر، بل وفي مصر وسوريا"[3].

كانت الشهاب مجلة أسبوعية أول الأمر لمدة أربع سنوات، ثم أصبحت شهرية وكان يديرها ابن باديس، وما كانت يوما ملكا لجمعية العلماء أو أي هيئة حزبية أخرى[4].

وأما شعارها فيتكون من أربع ألفاظ هي: الحرية، العدالة، الأخوة، السلام. من أشهر كتاب الشهاب: ابن باديس، محمد البشير الإبراهيمي، كما نشر فيها الشعراء منهم محمد العيد، ومحمد بن بسكر الذي يقول منوها بالجريدة:

حي الشهاب وحي الشيخ باديسا واسأل له الله توفيقا وتأنيسا

وقل رعاك الذي أعطاك موهبة حزما وعزما وتأليفا وتدريسا

توقفت الشهاب عن الصدور سنة 1939.

3-(البصائر): لم تظهر البصائر حتى ظهرت صحف أخرى سبقتها وهي: السنة، الشريعة، الصراط، وكانت كل منها تصادر من قبل الاستعمار، فكانت الجمعية تصدر صحيفة أخرى سريعا.

---

[1]-عبد الحميد بن باديس: الشهاب، ج1، م11، الافتتاحية. وعبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر،.ص90.

[2]-عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص91.

[3]- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر،المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1967، ص 51.

[4]- ينظر: عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، ص 92.

ظهرت البصائر في يوم الجمعة 12/27/ 1935 بالجزائر العاصمة، وانتقلت إلى قسنطينة بعد أربع سنوات، وكان لها دور كبير في الدفاع عن العروبة والإسلام. والبصائر نوعان:

أ- **البصائر الأولى:** من 1935 إلى 1939. وكان يديرها في السنتين الأوليين الطيب العقبي، وفي سنة 1937 عين مبارك الميلي بقرار من المجلس الإداري لجمعية العلماء مديرا ومحررا للبصائر خلفا للعقبي[1].

ب- **البصائر الثانية:** "وهي أطول عمرا وأخطر أمرا، وأبعد قيمة في تاريخ النهضة الأدبية بالجزائر، وقد صدرت في 25 يونيو 1939 ، وقد ظل الإبراهيمي مسئولا عن إدارتها إلى أن توقفت في سنة 1956، وقد كان الإبراهيمي لاجئا في المشرق العربي نتيجة البطش الاستعماري"[2].

من أشهر كتابها: الإبراهيمي، ابن باديس، الطيب العقبي، مبارك الميلي، أحمد توفيق المدني.

4-)الفاروق): أسبوعية أصدرها عمر بن قدور الجزائري سنة 1913.

6- (صدى الصحراء): أصدرها الشيخ الطيب العقبي والشيخ العابد وهي كذلك لم تعش إلا زمنا قصيرا.

7-(الجزائر): أصدرها الشيخ محمد السعيد الزاهري وعطلتها السلطات الاستعمارية ولم تعمر إلا قليلا.

8-(إفريقيا الشمالية): كانت هذه المجلة تصدر شهريا، أصدرها إسماعيل العربي (هو كاتب جزائري مغمور لا نكاد نعرف عنه اليوم شيئا) بمدينة الجزائر سنة 1949، أما كتابها فهم أنفسهم كتاب البصائر ما عدا البشير الإبراهيمي[3].

9-(الحق): أصدرها الشيخ العقبي ببسكرة سنة 1936، ولم تعمر طويلا.

10-(الجحيم): وكان يصدرها مع الدفاع محمد الأمين العمودي وكانت لا تنشر إلا المقالات العنيفة والأشعار البذيئة المؤلمة المؤثرة، لكي يطابق الاسم المحتوى[4].

---

[1] - نقلا عن: عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، ص100.

[2] - المرجع نفسه، ص101.

[3] - المرجع نفسه، ص ن

[4] - المرجع نفسه، ص111.

11-(النجاح): أسسها عبد الحفيظ بلهاشمي سنة 1919، كما شارك في تأسيسها ابن باديس وانسحب منها لما تنكرت هذه الجريدة للمبادئ الوطنية وأصبحت لسانا من ألسنة الحكومة الاستعمارية.[1]

12-(وادي ميزاب): أصدرها الشيخ إبراهيم أبو اليقظان سنة 1926، وقد عمرت نحو عامين ونصف ثم عطلها الاستعمار. فأنشأ صاحبها جريدة (ميزاب) وصادرتها الحكومة الاستعمارية أيضا، وله أيضا النور، النبراس.

أثر هذه الصحف على النهضة الأدبية والثقافية في الجزائر

كانت تلك الصحف منبرا للأدب الذي صور أحداث ومآسي الشعب الجزائري في تلك الفترة المظلمة من تاريخ الجزائر، "ولولا هذه الصحف لما كانت نهضتنا نهضة، ولما كان تاريخنا تاريخا، ولما كانت ثورتنا ثورة، في قرننا هذا. والفضل كل الفضل يعود لابن باديس الذي يجب أن يعد عميد الصحافيين بلا جدال أو مكابرة"[2].

وقد لمعت أسماء كتاب وشعراء كبار في مجال الكفاح من أجل الحفاظ على الجزائر عربية مسلمة، ومن هذه الأسماء اللامعة في فن المقال: ابن باديس، الإبراهيمي، الطيب العقبي، العربي التبسي. وبالنسبة للشعراء عُرِف: رمضان حمود وأبو اليقظان وحمزة بوكوشة ومحمد العيد وأحمد سحنون في ميدان الصحافة فضلا عن شعرهم المنشور في صفحاتها، فكتبوا القصائد التي تشيد بدور الصحافة في إنهاض الهمم وتوحيد الصفوف ونشر المعرفة، ومن ثم نجد كمًّا غزيرا من القصائد التي تلح طويلا على العلم، وتدعو الشعب إلى بناء المدارس وتعليم النشء، ورؤاهم التي ترى أنه بغير التعليم لا يتم الإصلاح ولا يتحقق الهدف لأنه "في بداية أية نهضة يكون العلم بمعناه الواسع سلاحا أساسيا لها، يهبها السطوة والنفوذ والقوة، ويملأ قلوب الناهضين بالإيمان الراسخ والوعي اليقظ"[3]، وتلك هي صرخة رمضان حمود التي رددها كثيرا على لسان الصحافة:

أصيح فيهم بصوت عز قائلة ألا حياة بها في الناس نرتفع

فمزقوا الجهل وانجوا من مخالبه فالجهل بالعلم والتفكير ينقطع

---

[1] - عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، ص 112

[2] - المرجع نفسه، ص 114 -115.

[3] - محمد ناصر: رمضان حمود حياته وآثاره، ص 33.

وحيثما كنتم ولوا وجوهكم وجهدكم شطر شمس العلم واندفعوا[1]

وفي هذا المجال يتحدث رمضان حمود عن أهميتها- إذا أحسن استغلالها- وعن دورها في التغيير وتنوير الرأي العام، وأثرها في تشكيل النفوس:

إن الصحافة نور للبلاد إذا سارت موفقة في أحسن السبل

هي الفؤاد لشعب قد غدا سكنا هي الحسام طويل الحول والحيل

هي اللسان لها حكم وسيطرة هي الرسول لدى الأجناس والدول

هي الطبيب يداوي من به مرض من الجهالة أو ميل من الزلل

تهذب القوم للإرشاد تصلحهم وتدفع الجور كالإرهاق والختل

فأمة نبذتها لم تنل أبدا ما ترتجي، لحياة العز لم تصل[2]

ويعلق الدكتور صالح خرفي على شعر رمضان حمود وعلاقته بالإصلاح فيقول: "ومنذ القراءة الأولى لشعره، يتجلى حمود وقد ملك عليه إصلاح شعبه وأمته تفكيره، وكأني بالفكرة الإصلاحية وقد امتزجت بدمه، فأعطاها كل ما يملك من قواه، ولم يثنه عن عزمه مستعمر حاول إذايتهم مرارا"[3].

وكان لصدور جريدة صدى الصحراء سنة 1924 أهمية بارزة في نشر المعرفة و في التعريف بمبادئ الحركة الإصلاحية، فكتب محمد العيد قصيدة بعنوان (صدى الصحراء) نشرت في العدد الأول يقول فيها:

كتبت فكان الحق طوع أناملي وقلت فكان الصدق وسع مقالي

وكنت(صدى الصحراء) أدعى لأنني بسطت على الصحراء نور هلالي

ووالیت بالإرشاد رفع عقيرتي عسى أن يهب النائمون حيالي

عسى أن يهب النائمون فإنهم يغطون من حقب مضين طوال[4]

---

[1] - المرجع السابق، ص33.

[2] - صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية، ص190.

[3] - محمد ناصر: رمضان حمود حياته وآثاره، ص 27.

[4] - محمد العيد آل خليفة الديوان، ص12.

كما عُرِف إبراهيم أبو اليقظان بحضوره القوي الفعال "في ساحة النضال والعمل الوطني الدءوب، ولم يدخر أي جهد في حركة الإصلاح والنهضة والتغيير ومقاومة أسباب التخلف والانهزام والتقاعس، ومناهضة كل عوامل فقدان المناعة الدينية والاجتماعية والوطنية، فحرر مقالات وأنشأ صحفا ونظم شعرا"[1]. والصحافة عنده هي الحياة بالنسبة للشعوب، والشعب من غيرها في عداد الأموات وبفضلها تُنال الرغائب وتتحقق السعادة والهناء ويُرَتقى إلى المجد:

إن الصحافة للشعوب حياة والشعب من غير اللسان موات

فهي اللسان المفصح الذَّلق الذي ببيانه تُتَدارَكُ الغايات

وهي الوسيلة للسعادة والهنا وإلى الفضائل والعلا مرقاة[2]

إلى أن يقول إن الشعب طفل والصحافة هي والده أو الوصي الذي يرى ما يصلح لحياته وما لا يصلح، وهو التلميذ والصحافة معلمه المخلص إذا سارت في الاتجاه الصحيح:

الشعب طفل وهي والده يرى لحياته ما لا تراه رعاة

الشعب تلميذ وتلك مثقف ومهذب إذ تخلص النيات[3]

ولا شك أن كثرة إنتاج أبي اليقظان في ميدان الصحافة هي التي جعلت عبد الملك مرتاض يعتبر أن "إبراهيم أبو اليقظان من أكبر الإعلاميين الجزائريين على عهد الاستعمار الفرنسي إطلاقا. فقد أصدر ثماني صحف: واحدة بعد أخرى"[4]، غير أن فضل السبق وجرأة الريادة والذكاء السياسي ومنهجية الرؤية الإصلاحية الوطنية كانت لعبد الحميد بن باديس بداية وإصرارا على التواصل.

وكان لهؤلاء دور كبير في النضال الصحفي، حيث كانت مقالاتهم وخطبهم وقصائدهم تتصدر الصفحات الأولى لتلك الصحف معبرة عن مختلف الأحداث الوطنية، وكمثال على ذلك محاولة الاغتيال التي تعرض لها الإمام بن باديس من طرف بعض المرتزقة (التابعين للطريقة العليوية) في بداية جانفي 1927. وأمام هذا الحدث الجلل"صدح أكثر من شاعر بقصائد منددين

---

[1] – محمد ناصر بوحجام: دراسات عن الشعر الجزائري الحديث، ط1، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 2011. ص75.

[2]– إبراهيم أبو اليقظان: الديوان ج1، ص130.

[3] – المصدر نفسه، ص131.

[4] – عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، ص125.

بالعمل الإجرامي، من أمثلة ذلك قصيدة محمد العيد (حمتك يد المولى) التي نشرت في العدد الأول من الشهاب الصادرة في 27 جانفي 1927".[1] ومنها:

حمتك يد المولى وكنت بها أولى فيا لك من رجل حمته يد المولى

وقد نالت الشهاب والبصائر حصة الأسد من الأعمال الإبداعية للشعراء والخطباء وكتاب المقال، يقول عبد الملك مرتاض: "وقد ظلت الشهاب والبصائر بمثابة المعين الثرثار الزلال ماؤه، تستمد منه جميع الصحف الأخرى، أو بمثابة القطب الذي تدور عليه الأشياء وتقوم حوله"[2].

ونظرا للدور الريادي الذي لعبته الصحافة، فقد واجهت عقبات كثيرة كانت تخلقها السلطات الفرنسية لعرقلة ظهور وانتشار الصحف حيث كانت " توقف أية صحيفة لا ترضيها لهجتها واتجاهها، وكان سيف الرقابة مسلطا على أصحاب الصحف العربية "[3].

ومن المضايقات التي تتعرض لها الصحافة ما ورد في جريدة الصراط معللا تأخرها عن القراء بعنوان: قانون جديد " يوجب على مدير الصحيفة أن يقدم طلبا مع نسختين من جريدته لمدير البريد طالبا منه الإذن بتوزيعها، ومدير البريد لا يأذن بتوزيع الجريدة إلا بعد جواب وكيل الحق العام بكون هذه الجريدة قائمة بواجب القانون الصحافي، ولانتظار هذا الإذن من مدير البريد قد تتأخر الجريدة أياما "[4].

ويصف الدكتور إحسان حقي حالة هذه الصحافة قائلا: " إن حرية الصحافة مصونة في بلاد الجزائر ما دامت هذه الصحف تسبح بحمد فرنسا، وما دامت تصدر باللغة الفرنسية، وأما إذا كانت صحيفة عربية، أو أرادت أن تقول الحق فسيف الظلم مسلط عليها، ولا تعدم الحكومة ألف حيلة للقضاء على صحيفة أو على صاحبها أيضا "[5].

ولكن هذا الاضطهاد لم يكن ليثن الجزائريين عن عزمهم وتصميمهم حتى أن بعض الصحف كانت تطبع بتونس وتوزع بالجزائر.إن هذا الإصرار يمثل التحدي الصحيح لكل مناورة

1- فوزي مصمودي: (محمد العيد آل خليفة الوجه الآخر لنضاله الصحفي)، البصائر سلسلة 4، سنة 6، عدد 264 ، 28 نوفمبر إلى 5ديسمبر 2005 ، ص10.

2 - عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925-1954)، ص 113.

3- أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، ص55.

4- مجلة الصراط: دار الغرب الإسلامي، عدد 3، الاثنين 25 مارس 1933.

5- أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، ص55.

استعمارية " فلا يتوارى المشروع باسم حتى يطالعنا بآخر، ولا تختفي الجريدة (منتقدا) حتى تعانقها (شهابا) ولا نفتقدها (نورا) حتى تفاجئنا(نبراسا)" [1].

وأصبحت ظاهرة صدور الجريدة أو اختفاؤها السريع لا تلفت النظر حتى عند محمد العيد "وهو يتحدث إلى القراء متقمصا مجلة الشهاب بعد احتجاب المنتقد سنة 1926"[2].

خليا عنكما حديث احتجابي عرجا بي إلى العلا، عرجا بي

فلئن رحنا غيلة لافتراءات فإني قد أبت خير مآب

وتفاديا لشر الاستعمار لجأ العديد من الكتاب بهذه الصحف إلى استعمال الحيلة للإفلات من الرقابة، فكانوا ينشرون مقالاتهم وأشعارهم بأسماء مستعارة.

---

[1]- صالح خرفي: شعراء من الجزائر (الحلقة الأولى)، ص20.

[2]- المرجع نفسه، ص19..